



# التوكل

وما أدراكم ما التوكل

www.baynoonah.net

@Baynoonahnet



@BaynoonahnetUAE



@BaynoonahnetUAE



السبع

و محمد بن خنيفة خنيفة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [إل عمران: ١٠٤]

أما بعد:

التوكل وما أدراكم ما التوكل، موضوعٌ تقوم عليه حياة العباد، بل يدور عليه إيمانهم، وينطلق منه إسلامهم.

قال الإمام العلامة ابن القيم: «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة»<sup>(١)</sup>.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال: «ومنزله أوسع المنازل وأجمعها» - بل لا يقوم عبداً بالعبودية إلا بالتوكل.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية»<sup>(٢)</sup>.

ولذلك قال الله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[المائدة: ٢٣]. وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

[إبراهيم: ١٢]. وقال عن أنبيائه: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُنَوِّكُ عَلَى اللَّهِ

وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ص: ١٢٣.

## ما هو التوكل؟ وما هي حقيقته؟

قال الإمام العلامة ابن رجب رحمه الله: «هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها»<sup>(٣)</sup>.

وقال بعضهم: التوكل التعلق بالله في كل حال.

ولذلك قال سعيد بن جبیر: «التوكل على الله جماع الإيمان»<sup>(٤)</sup>.

ولكن يُعلم: أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب، فإن الله ﷻ أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان بالله.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصلح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد»<sup>(٥)</sup>.

وقال رحمه الله: «فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها»<sup>(٦)</sup>.

ولذلك قال رحمه الله: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا»<sup>(٧)</sup>.

أي: تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون.

قال العلامة ابن رجب رحمه الله: «وهذا الحديث أصلٌ

(٣) جامع العلوم والحكم/الحديث التاسع والأربعون.

(٤) كتاب التوكل على الله لابن أبي الدنيا. الحديث رقم: ٥. ص: ٤٧.

(٥) مدارج السالكين. ص: ١١٧.

(٦) مدارج السالكين. ص: ١٢٠.

(٧) الراوي: عمر بن الخطاب. المحدث: الألباني. المصدر: هداية الرواة. الصفحة

أو الرقم: ٥٢٢٩. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه الترمذي

(٤٤/٢٣)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد (٢٠٥) واللفظ له.

في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق»<sup>(٨)</sup>.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۗ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم قال: «ويدل على أن الناس إنما يؤتون من قلة تحقيق التوكل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكنتهم لها، فلذلك يتعبون أنفسهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قدر لهم، فلو حققوا التوكل على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوعٌ من الطلب والسعي، ولكنه يسير». قال: «وربما حُرِمَ الإنسان رزقه، أو بعضه بالذنب يصيبه».

وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، وادعوا ما حرم»<sup>(٩)</sup>.

وفي رواية: «إن نفسًا لا تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإن الله لا يُدرك ما عنده إلا بطاعته»<sup>(١٠)</sup>.

وفي رواية: «أجملوا في طلب الدنيا، فإن كلاً مُيسرٌ لما كُتِبَ له منها»<sup>(١١)</sup>.

(٨) جامع العلوم والحكم/الحديث التاسع والأربعون.  
(٩) الراوي: جابر بن عبد الله. المحدث: الألباني. المصدر: صحيح ابن ماجه. الصفحة أو الرقم: ١٧٥٦. خلاصة حكم المحدث: صحيح.  
(١٠) الراوي: حذيفة بن اليمان. المحدث: الألباني. المصدر: صحيح الترغيب. الصفحة أو الرقم: ١٧٠٢. خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح.  
(١١) الراوي: أبو حميد الساعدي. المحدث: محمد جار الله الصعدي. المصدر: النوافح العطرة. الصفحة أو الرقم: ١٩. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخریج: أخرجه الحاكم (٢١٣٣).

وفي هذا الحديث دلالة على أن الإنسان إذا توكل على الله حق التوكل فليفعل الأسباب، فإنها مصدرٌ من مصادر الرزق.

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله» <sup>(١٢)</sup>.

وتأملوا حال رسولكم وأصحابه قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [إل عمران: ١٧٣].

فكان الجزاء: ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [إل عمران: ١٧٤].

فصدق التوكل يورث الثبات عند الشدائد، كما قال الله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

في الصحيحين وغيرهما، قال الصديق رضي الله عنه يوم الغار: «نظرت إلى أقدام المشركين، ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، قال: ما ظنك يا أبا بكرٍ باثنين الله ثالثهما» <sup>(١٣)</sup>.

هنا بذل السبب، وكمال التوكل، والثبات عند الشدائد. وفي الصحيحين أيضًا: أن رسول الله ﷺ: «قال تحت شجرة في غزا». أي: نام في وقت الظهيرة، «وقد علق سيفه فجاء رجل من المشركين، فاختلط سيف رسول الله ﷺ، ثم قال: تخافني، فاسيتقظ رسول الله ﷺ فقال: لا، فقال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، الله، الله، قال:

(١٢) مدارج السالكين. ص: ١١٢.

(١٣) الراوي: أبو بكر الصديق. المحدث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: ٢٣٨١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

فسقط السيف من يده» (١٤). ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ  
وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٣].

ولذلك قال ابن عباس كما عند البخاري وغيره: «حسبنا  
الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها  
محمد ﷺ، حين قالوا له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ  
فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [إل عمران: ١٧٣]  
« (١٥).

فكلما ازداد الإيمان زاد التوكل، كما قال الله: ﴿ إِنَّمَا  
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ  
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿ وَمَا لَنَا  
أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

بل من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب،  
ولا عذاب: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا  
يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون» (١٦). متفق على صحته.

بل تأملوا قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني  
أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من  
فضلك العظيم» (١٧).

قال العلامة ابن القيم ﷺ: «فهذا توكلٌ وتفويضٌ». ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب».

(١٤) الراوي: جابر بن عبدالله. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: ٢٩١٠. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(١٥) الراوي: عبدالله بن عباس. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: ٤٥٦٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: من أفراد البخاري على مسلم.

(١٦) الراوي: عبدالله بن عباس. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: ٥٧٠٥. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(١٧) الراوي: جابر بن عبدالله. المحدث: الألباني. المصدر: صحيح النسائي. الصفحة أو الرقم: ٣٢٥٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه البخاري (١١٦٢)، وأبو داود (١٥٣٨)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٣٢٥٣) واللفظ له، وابن ماجه (١٣٨٣)، وأحمد (١٤٧٠٧).

قال: «فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحوال والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون»<sup>(١٨)</sup>.

ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً أو آجلاً، أو أن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذا هو حاجته التي سألتها فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به**»<sup>(١٩)</sup>.

فهذا الدعاء اشتمل على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته، فإن لم يرص بما قضي له فتفويضه معلول فاسد، فالتوكل: التعلق بالله في كل حال.

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»<sup>(٢٠)</sup>.

يقول ابن القيم عليه رحمته الله: «هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه»<sup>(٢١)</sup>.

فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان. يقول رحمته الله: «**المؤمن القوي**». أي: القوي في إيمانه، لأن القوي تعود إلى الوصف السابق وهو (الإيمان)،

(١٨) مدارج السالكين. ص: ١٢٣.

(١٩) تقدم تخريجه.

(٢٠) الراوي: أبو هريرة. المحدث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: ٢٦٦٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢١) حديث القوة. انظر: "شفاء العليل" (١٩)، و"تيسير العزيز الحميد" (٦٧٨).

والله ﷻ لا ينظر إلى الأجساد، فالمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وهذا فيه دلالة على وصف الله بالمحبة، وأنها حقيقية، وأن محبته للمؤمنين تتفاضل، فالمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، فالمؤمن كله خير.

ثم قال: «**أحرص**». وهو بذل الجهد واستفراغ الوسع. «**أحرص على ما ينفعك**». وفي هذا وجوب الابتعاد عن الضار، فالخير كله في الحرص على ما ينفع، ثم قال: «**استعن بالله**». فإذا كنت عاقلاً وحرصت على ما ينفع، فاحذر الاغترار بالنفس، والاعتماد عليها، ولكن استعن بالله في جميع أمورك، لأنك كثيرا من الناس إذا وُفق في الأعمال ترك الاستعانة بالله، خاصة في أمور الدنيا، وقد يكون لسان حال البعض ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ، عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

ثم قال: «**ولا تعجز**». أي: استمر في العمل، فما دمت بدأت الأمر النافع، واستعنت بالله فلا تعجز، لأن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فهذا إرشادٌ له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن زمة الأمور بيديه.

ثم قال: «**وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا**».

وهذه هي المرتبة الرابعة: وهي حصول خلاف المقصود. فالمراتب أربع:

الأولى: الحرص على ما ينفع.

والثانية: الاستعانة بالله.

والثالثة: المضي في الأمر، وعدم العجز. هذه المراتب كلها ترجع إلى الإنسان.

وأما المرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود فهذه ليست إليك، هي بقدر الله، ففوض الأمر إلى ريك.



قال ابن القيم رحمه الله: «فإن فاته ما لم يُقدر له». أي حصل خلاف المقصود. فله حالتان: حالة عجزٍ وهي مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى لو، ولا فائدة في لو هاهنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه رحمه الله عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية: وهي النظر إلى القدر، وملاحظته، وأنه لو قُدر له لم يفت، فلم يبق له هنا أنفع من شهود القدر، ومشیئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، فلها قال: «فإن غلبك أمرٌ فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» <sup>(٢٢)</sup>.

فأرشدته إلى ما ينفعه في الحالتين:

- حالة حصول مطلوبه.

- وحالة فواته.

فالحرص صدق النية، وعدم تكاسل العزيمة، وهذا حقيقة التوكل، وهو مفتاح الخير، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [مِحْمَد: ٢١].

قال شقيق: «كنت شاعرا فرزقني الله التوبة، وخرجت من ثلاثمائة ألف درهم، ولبست الصوف عشرين سنة، ولا أدري أي مرأى حتى لقيت عبد العزيز بن أبي رواد، فقال: ليس الشأن في أكل الشعير ولبس الصوف، الشأن أن تعرف الله بقلبك، ولا تشرك به شيئا، وأن ترضى عن الله، وأن تكون فيما يدي الله أوثق منك بما في أيدي الناس» <sup>(٢٣)</sup>.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتوكلين عليه حقاً ويفقهنا وإياكم في ديننا، كما نسأله ﷻ أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل سوء وفتنة، نسأله ﷻ أن يوفق ولاة أمورنا لما يحب ويرضى، وأن يرزقهم البطانة الصالحة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،

(٢٢) تقدم تخريجه.

(٢٣) سير أعلام النبلاء. الجزء رقم: ٩.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على  
محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

